تصعيد الخطاب في سورة "الكافرون": قراءة في ضوء لسانيّات النص

ESCALATION IN QUR'ANIC DISCOURSE SŪRAH AL-KĀFIRŪN AS A MODEL

د.حليمة أحمد عمايرة

haleema555@yahoo.com

الملخَّص

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد الأمين،، وبعد،

تتعدد قراءة النص في ظل تطور المناهج اللسانية الحديثة، و هذا التعدد لا يعني نهاية القراءة،و إذا ما أخذنا بالاعتبار، أن القرآن مصدر لا ينضب من الدلالات و والمعاني فلا شك أن ذلك يفتح مجال الدراسة و التحليل على أكثر من قراءة.و تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على خصوصية لغوية شكلت ظاهرة أسلوبية في القرآن الكريم، و هي" تصعيد الخطاب "،من خلال سورة "الكافرون"، وهي سورة مكية، جاء الخطاب فيها للكافرين بهدف الفصل الحاسم بين التوحيد والشرك،وإقامة المعالم الواضحة التي لا تقبل المساومة والجدل في قليل ولا كثير.

ABSTRACT

The study aims at analyzing the phenomenon of escalation in Qur'anic discourse in Surah al-Kafiroon as an example. Discourse escalation is considered one of the Qur'anic features that requires thinking and use of mind to reveal its secrets and various features. The study consists of examples from Surah al-Kafiroon as a step to examine discourse escalation in the Qur'an at phonological, morphological and semantic levels.

Finally, I hope this study would open the door for more deeper researches on Qur'anic discourse that may be used as the basis for Arabic discourse.

Keywords: *escalation, surah al-kafirun, Qur'anic discourse.*

مدخل

يُعدُّ "تصعيد الخطاب" بُعداً من أبعاد لسانيات النص، التي تُعنى بدراسة العلاقات الشكلية الخارجية والدلالية الداخلية جميعاً التي تحكم النصَّ ، وقد جاء علم النص شاملا لعلوم سابقة له، مثل لسانيات الجملة، واللسانيات الأدبية ،وقد عُرِّف النص بأنه وحدات تواصلية تحكمها سبعة من المعايير إذا تخلف واحد منها، انتزعتْ منه صفة النصية،[٥٩] وهي وفق ديبوغراند:السبك أو الربط النحوي (Cohesion.والحبك (Cherence)،. والقصد (Intentionality):.والقبول والمقبولية (Acceptability):. والإخبارية أو الإعلام (Informativity): والمقامية (المناسبة) (Situationality.والتناص (Intertextuality)، ولا شك أن الانطلاق من النص، يمكّن من تحديد نقطة تصعيد الخطاب في النص، وربما لم يرد مصطلح " تصعيد الخطاب" في الدراسات القديمة والحديثة بلفظه، بيد أنه ورد في مضمونه، إذ إن تصعيد الخطاب هو ذاك التنامي في دائرة الخطاب في القوة ليصل إلى الذروة في موضوع ما[٦٠].

ونلمح مثل هذه الدلالة عند اللغويين القدامى، والبلاغيين بخاصَة، تحت مسميات مختلفة، فقد بين أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) في كتابه الصناعتين أن "البلاغة انتهاء المعنى إلى قلب السامع فيفهمه،دون معاناة في الفهم، كما تمتاز البلاغة بالإيجاز، لأنك تبلغ بها، فتنتهي بك إلى ما فوقها، حتى تصل ذروة المعنى وقمته "[٦١]، وذكر مصطلح "الغلو" في كتابه "محاسن النثر والنظم "وعرَّفه، بأنه "تجاوز حد المعنى، والارتفاع فيه إلى غاية لا يكاد يبلغها "[٦٢]، وذكر شرف الدين الطيبي (٤٣٥ هـ) في كتابه (التبيان في البيان)، لفظ "الترقِي"،وعرَّفه بأنه يكون "بذكر المعنى ثم يردف بما هو أبلغ منه كقولك: فلان عالم نحرير،وشجاع باسل،وجواد فياض "[٦٣]، وبحث الأمام بدر الدين الزركشي (ت٧٩٤ هـ)، في (البرهان في علوم القرآن) مفهوم الترقي ضمن باب "التقديم والتأخير"وجعله سبباً من أسبابه،كقوله تعالى " ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ ﴾" (الأعراف ١٩٥).،فبدأت الآية بالأدنى لغرض الترقي[٦٤].

اما عند المحدثين فقد كثر مدلوله عند دراسة الأعمال الأدبية،ولا سيّما القصة،فيما عرف بالذروة،وعرّفت بأنها لحظة كشف واستبصار، شديدة التكثيف، شمولية الرؤية، وهي لحظة خاصة جداً، إذ المبدع ومحيطه في كل واحد متحد[٦٥].

---

٥٩ انظر: **علم اللغة النصي بين النظري والتطبيق**، صبحي الفقي،، ج١، القاهرة، دار قباء، ٢٠٠٠، ص٢٣. وانظر: **النص والخطاب والأجراء**، روبرت دي بوجراند،، ترجمة تمام حسّان، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨، ص١٠٣-١٠٥.

٦٠ **تصعيد الخطاب في القرآن الكريم،سورة العاديات أنموذجا**، حليمة عمايرة،.منشورات جامعة اليرموك في الكتاب الخاص بمؤتمر النقد واللغة الثاني عشر، ٢٠١٠.

٦١ **كتاب الصناعتين**، أبو هلال العسكري، تحقيق محمد علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية،١٩٥٢، ص٦

٦٢ **محاسن النثر**، أبو هلال العسكري، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة، ص٨٧

٦٣ **التبيان في البيان**،شرف الدين الطيبي، تحقيق توفيق الجمل وعبد اللطيف لطف الله، دار ذات السلاسل، الكويت،١٩٨٦.

٦٤ **البرهان في علوم القرآن**، الأمام بدر الدين الزركشي (ت٧٩٤ هـ)، تعليق مصطفى عبد القادر عطا،دار الكتب العلمية،بيروت،٢٠٠١،ص٣١٣.

٦٥ انظر. **أ.ب بتشيكوف**، برميلوف فلاديمير.. ترجمة عبد القادر القط وفؤاد كامل، الهيئة المصرية للتأليف والترجمة د.ت. ص١٤٥، وانظر: **عشرة أدباء يتحدثون**، فؤاد فوارة، دار الهلال ١٩٧٠،ص٧٥

وهي في فن الرسم تلك اللقطة التي ينتهي فيها الفنان من إنجاز ما يرسم أو ما ينحت، هي تلك اللحظة التي أبدع فيها فنان مثل دافنشي لوحة الجيوكندا أو "الموناليزا"، وظلت تشغل مؤرخي الفن ونقاده، على مدار قرنين من الزمان، لفك سر بسمتها وسحر نظرتها التي تتوجه للرائي في الجهات كلِّها ؛ إذ يخامره إحساس بأنها ترنوا إليه بلطف ونبل وسكينة[٦٦].

وقاربت دوريس ليسنغ (Lessing)، بين الذروة في فن الرسم والأدب (شعره ونثره)،" فالفنان قد يصل إلى درجة الذروة التي تجبره على أن يضع حدودا للتعبير،فهو لا يستطيع أن يقدم عاطفة في أوج قوتها،بسبب من طبيعة الوسط الذي يعمل من خلاله،إذ يستطيع أن يستفيد من لحظة واحدة من الطبيعة الدائمة التنوع، وهذه يجب أن تكون لحظة تستطيع أن تتحمل التأمل الطويل المتكرر، في حين أن الأديب يستطيع الوصول إلى أسمى درجات التأثير في المتلقي، وذلك من خلال تدرجه في استخدام اللغة المناسبة، إلى أن يصل إلى درجة الذروة،وبذلك يرتقي بالأفراد والجماعات، إلى مستوى يستطيعون فيه تذوق الفن، وإدراك ما فيه من نواحي الإبداع، التي تهذب العقل، وتغذي الفكر،وتنمي العاطفة.

وهذه المعاني جميعها تلتقي مع المعنى المعجمي للتصعيد، فالتصعيد لغة: المكان فيه ارتفاع، كالجبل العالي الذي يشئد صعوده على الرامي [٦٧].

والتصعيد: المنزلة العالية، يقال: أصعد: أتى مكة [٦٨]، ومن هنا نجد أن مفهوم التصعيد في اللغة يدور حول التدرج في الصعود والارتقاء من الأدنى إلى الأعلى، كصعود الجبل أو مكان مرتفع أو الوصول إلى أقصى درجات الشدة والحدة.

وقد وردت مادة" صعد" في القرآن الكريم تسع مرات[٦٩].،كقوله تعالى:" ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ " ا لأنعام ا لآية [١٢٥]، وهذا مثل لشدة الأمر، كقولهم "يتنفس الصعداء إلى فوق"[٧٠].

و تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على خصوصية لغوية شكلت ظاهرة أسلوبية في القرآن الكريم، و هي" تصعيد الخطاب "،من خلال سورة "الكافرون"، وهي سورة مكية، جاء الخطاب فيها للكافرين بهدف الفصل الحاسم بين التوحيد والشرك،وإقامة المعالم الواضحة التي لا تقبل المساومة والجدل في قليل ولا كثير.

---

[٦٦]أ. السابق، ص٤٥.

[٦٧] **معجم تهذيب اللغة** ،.أبو منصور محمد الأزهري.، المجلد الثاني تحقيق رياض زكي قاسم، دار المعرفة، بيروت، ص ٢٠١

[٦٨] **تاج العروس في جواهر القاموس** ، محمد مرتضى الزبيدي،تحقيق عبد العزيز مطر، مراجعة عبد الستار أحمد فراج، الكويت، د.ت، ص ٢٨٥

[٦٩] **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** محمد فؤاد عبد الباقي...ط٢،دار الحديث ،القاهرة،١٩٨٨، ص٥١٨، والمواضع التسعة هي: آل عمران، الآية ١٥٣، الأنعام،الآية ١٢٥، النساء، الآية ٤٣، المائدة، الآية ٦، فاطر، الآية ١٠، الكهف، الآيتان "٤٠،٨"،الجن، الآية ١٧، المدثر، الآية ١٧

[٧٠].**عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ**. معجم لغوي لألفاظ القرآن الكريم، السمين الحلبي." أحمد بن يوسف " ،ط١، ج٢، (تحقيق محمد التونخي)،دار عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٣م، ص٣٨٩

ولا شك أن للسورة سحرا يتمثل في إعجاز النظم، إذ هي من السور المكية التي نزلت قبل أن يكون النظر في إعجاز القرآن يمكن ردّه إليه مكتملا، بما فيه من تشريع وغيب وعلوم. فقد استطاع نظمها أن يشرك العقل والمخيلة في تصعيد خطابها بما يحقق دلالاتها،

والسورة تتميز باستعمال موادّ لغوية محددة محدودة،بطريقة يبدو فيها التكرار، و قد تعددت الآراء في أوساط المفسرين فيه،، فمنهم من ذهب أنها من باب التكرار للتوكيد، وفائدته قطع أطماع الكفار و تحقيق الإخبار بموافاتهم الكفر، و أنهم لا يسلمون أبداً.[٧١]

و ذهب الأخفش أنها جاءت للتأسيس، إذ تقيدت كل جملة بزمان غير الزمان الآخر[٧٢]

وذكر الزمخشري " لا أعبد " أُريد به الزمن المستقبل، " ولا أنا عابد ما عبدتم ": أي ما كنت قط عابداً فيما سلف ما عبدتم، " و لا أنتم عابدون ما أعبد " أي: و ما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته الآن[٧٣].

و أضاف أبو حيان أن " و لا أنتم عابدون ما أعبد " نفياً للمستقبل على سبيل المقابلة [٧٤]، " و لا أنا عابد ما عبدتم " نفياً للحال، ثم عطف " و لا أنتم عابدون ما أعبد " نفياً للحال على سبيل المقابلة، فانتظم المعنى أنه عليه السلام لا يعبد ما يعبدون حالاً و لا مستقبلاً.

و ذهب القرطبي أنه تكرار جاء لأن " القوم كرروا مقالتهم مرة بعد مرة [٧٥]

فكيف يمكن أن يسهم تتبع تصعيد الخطاب في إلقاء ضوء على هذه الظاهرة في هذه السورة ؟؟

وللوقوف على ذلك، لا بد من البحث في الدوائر اللغوية التي تتكون منها، وذلك بالوقوف على تصعيد الخطاب فيها في المستوى الصوتي والمعجمي والتركيبي وصولا إلى المستوى الدلالي، ولا شك أن ذلك يتطلب أن يكون منهج الدراسة منهجاً تكاملياً، فمن خلال المنهج الوصفي الإحصائي يمكن الكشف عن أثر المستوى الصوتي في تصعيد الخطاب وذلك بحصر المقاطع الصوتية في السورة وربطها بدلالاتها Phonological Escalation، بعد كتابتها بالأبجدية الدولية، وكذلك بالوقوف على نماذج من المفردات المعجمية،التي تميزت بها هذه السورة، وملاحظة فاعليتها في توليد دلالات تصعيديه عميقة،لا تتأتى إلا باستعمال تلك المفردات بصيغها الصرفية المحددة"Lexical Escalation "، ومن خلال المنهج التوليدي التحويلي، يمكن الوقوف على البنى

---

[٧١] البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ،ج٨، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣ م. ج٨/٥٢٠

[٧٢] السابق، ج٨/٥٢٠.

[٧٣] ا.الكشاف،الزمخشري دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٦ م ج٤/٨٠٩

[٧٤] البحر المحيط، أبو حيان. ج٨/٥٢٠

[٧٥] **الجامع لأحكام القرآن**، القرطبي،(محمد بن أحمد بن أبي بكر٦٧١ ه)، القاهرة، دارالكتب،١٣٥٩ه.

الدلالية الجزئية (Grammatical Escalation)، التي يتشكل منها الخطاب القرآني في هذه السورة، وذلك بالتعرف إلى أنماط التحويل في الجملة، استناداً إلى أن نحو الجملة يمثل نواة النص، وصولاً إلى البنية الكلية للنص.

وتفيد الدراسة في البعد النظري من مراجع اللسانيات الحديثة،فضلاً عن مصادر المكتبة القرآنية العامرة الزاخرة، التي لا شك أن فيها جهوداً جليلة، لا يجرؤ منصف على أن يجحد فضل أحد منها، فقد ضرب أصحابها قدوة حسنة في التعامل مع تفسير القرآن الكريم بأنه من علوم العربية التي لم تنضج ولم تحترق، علما بأني لم أقف على أي دراسة تطبيقية في " تصعيد الخطاب في سورة " الكافرون" تحديداً،وسوف تقف الدراسة عند أهم الإضاءات في المستويات الصوتي والصرفي والتركيبي، التي من شأنها أن تسهم في رسم منحنى التصعيد في هذه السورة من خلال قراءة آياتها آية آية.

في المستوى الصوتي

لا شكّ أن دراسة النص تتطلب الوقوف عند لبناته الأولى، التي هي في حقيقتها جملة من المقاطع الصوتية، و المقطع " في حقيقته النطقية و الأكوستيكية، توزيع منظم للطاقة الصوتية، و يتم هذا التوزيع على أساس التباين الكائن بين الصوامت و الحركات و أنصاف الحركات)[٧٦]، و على هذا فالنظام المقطعي نظام صوتي تخضع لميزانه الكلمات العربية كلها دون استثناء، وَفق الصورة التي ورد عليها في الاستعمال اللغوي، فعن طريق المقطع، يمكن تصريف الكلمة بين الاسمية و الفعلية، ذلك لأن المقطع هو الخيط المعدّ لتشكيل النسيج اللغوي بوجه عام، فهو: " الوحدة الأساسية التي يقوم الفونيم بوظيفته داخلها" [٧٧] .

ونظراً للتطور العلمي و التكنولوجي الكبير الذي شهدته البشرية، فقد أصبح نظام الكتابة، و هو من أبرز مميزات الإنسان بحاجة إلى تطوير يساعد في تلبية متطلبات الإنسان، و من هنا ظهر ما عُرف ب " الأبجدية الصوتية الدولية "، أو " الكتابة الصوتية " نظاماً صالحاً لتسجيل أصوات أية لغة من اللغات تسجيلاً بهدف المساعدة في تدريس النطق الدقيق إلى حدٍ ما لها [٧٨].

والمبدأ العام الذي تقوم عليه هذه الكتابة، هو تخصيص حرف أو رمز كتابي واحد، ليس غير لكل فونيم من فونيمات اللغة المراد دراستها .

ونظراً لاعتماد الدراسة على التمثيل الصوتي، فإن كتابة السورة تمت كما نسمع القرآن ، لا كما نكتبه[٧٩]،واتبعت قراءة حفص مع الوقوف على رؤوس الآيات (أي أن آخر حرف في كل آيه يكون ساكناً)، وذلك كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفعل عند قراءة القرآن،وحتى تكتمل الصورة في جانبها الصوتي، سعت الدراسة إلى أن تبين أبرز السمات الرئيسية للفونيمات المكونة للمقاطع في السورة مما تطلب تصنيفها ، ومن ثمَّ إلقاء الضوء عليها إحصائياً، وأهم هذه الظواهر الصوتية(٨٠). الجهر والهمس

---

[٧٦] **الأصوات اللغوية**. سمير استيتية، عمان –دار وائل، ٢٠٠٣م، ص ٣٠٠

[٧٧] . **دروس في الألسنية**، دي سوسير، ترجمة صالح القرمادي، الدار العربية للكتاب–ليبيا، ١٩٨٥ م

[٧٨] **دروس في علم الأصوات العربية**، كانتينو، ترجمة صالح قرمادي، مركز الدراسات و البحوث، تونس، ١٩٦٦ م، ص ٩، و **انظر. المنهج الصوتي للبنية العربية**، عبد الصبور شاهين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٠ م، ص ٢٧

[٧٩] انظر: **استخدام الآلات الحاسبة الالكترونية في دراسة ألفاظ القرآن الكريم**، علي حلمي موسى،عالم الفكر، المجلد ١٢، ١٩٨٢م

(٨٠) **بشر. كمال، علم اللغة العام، علم الأصوات،دار المعارف القاهرة١٩٧٣** .

والانفجار والاحتكاك،والاستمرارية،والصفيرية،والتكرار والتركيب،وسوف تظهر نتائج هذه الملاحق أثناء الدراسة في بيان إسهامها في تصعيد الخطاب في السورة [٨١]

في المستوى الصرفي:

يتفق النقاد القدامى والمحدثون الغربيون والعرب أن السياق وحده هو القادر على أن يمنح اللفظة دلالتها المحددة وذلك بدراسة علاقتها بما يجاورها من ألفاظ [٨٢]،وعند إنعام النظر في هذه السورة الكريمة،يلحظ أنها ذات مفردات محدودة لا تتجاوز ثلاث مواد لغوية ،وهي تتسم بأنها كلمات واضحة مختصة بأحوال العقيدة وما يتصل بها من اليوم الآخر

وهي:–مادة كفر: "الكافرون "،–مادة عبد: " أعبد " "عبدتم "،–مادة دين: "لكم دينكم،ولي دين "، ومعناها في السورة اشتمل على دلالاتها المعجمية والإسلامية معا، وقد وردت بالمعنى نفسه في اللغات السامية (الجزيرية)[٨٣]، كالسبئية والأكاديمية والآرامية والسريانية والعبرية،[٨٤] وهذا بحد ذاته يعطي هذه الكلمات طاقة إعلامية عالية، مداها يضرب في عمق الزمان والمكان والإنسان.، فكيف توالت هذه الألفاظ المحدودة المحددة في التعبير عن هذه الدلالات المتحدية،وبخاصة أنه " ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها، وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل"[٨٥] ؟

في المستوى التركيبي

وعند رجع النظر في تراكيب هذه السورة المتماسكة،نجد أنها سورة" جملة الموضوع الواحدة "،إذ لم تخرج في تركيبها عن الجملة النواة وبعض عناصر التحويل، والجملة النواة: الحد الأدنى من الكلام الذي يعطي معنىً يحسُنُ السكوت عليه، و هي إما أن تكون اسمية و بؤرتها المبتدأ، و إما أن تكون فعلية و بؤرتها الفعل، و على هذا فهي جملة بسيطة simple غير مركبة، مثبتة affirmative غير منفية، مبنية للمعلوم active لا للمجهول، تقريرية determinate لا إنشائية، و قد يطرأ على الجملة النواة عناصر تحويل كالزيادة و التوسعة، و الحذف و التضييق، و التقديم و التأخير، و الإحلال و التنغيم ، و كلها تكسبُ الجملة دلالات جديدة، علماً بأن المفعول به ليس من الزيادة، لأنه ليس فضلة، إذ هو مما يقتضيه وجود فعلٍ متعدٍ في الجملة، و لا يجوز النظر إلى الفعل اللازم على أنه الأصل، و أن المتعدي فرع، إذ إن الجملة ذات الفعل المتعدي لا تكتمل دلالتها إلا بالمفعول به و

---

[٨١] و تشتمل الملاحق على: ١–ملحق تعريف بالرموز المستعملةو مقابلاتها في العربية، ومفاتيح المقاطع المستعملة،٢–ملحق بالكتابة الصوتية للسورة،٣–ملحق بأهم الظواهر الصوتية،٤– ملحق بأنواع المقاطع فيها،وقد حال دون إرفاقها بالدراسة ضرورة الالتزام بعدد محدود من الصفحات.

[٨٢] **دلائل الإعجاز**، الجرجاني، تعليق و شرح عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، ١٩٦٩ م

وانظر:،**قضايا النقد الأدبي والبلاغة**، محمد زكي العشماوي، دار الكتاب العربي،القاهرة ١٩٦٧،ص ٣٠٣. وانظر:**الأشباه والنظائر**، مقاتل بن سلمان البلخي (ت ١٥٠ ه) تحقيق عبد الله شحاتة،القاهرة ١٩٧٢ ص ٨٩–١٦٥، وانظر: **الزينة**، أبو حاتم (أحمد بن حمدان الرازي) ت (٣٢٢ ه)، تحقيق حسين بن فيض الهمذاني،ح١/ص ١٤،القاهرة ١٩٥٧ م.

[٨٣] **اللسانيات**، سمير ستيتية،عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠٠٥ ، ص ٢٤٦ .

[٨٤] **بحوث في الاستشراق واللغة**، إسماعيل عمايرة، عمان – دار وائل للنشر،٢٠٠١. ص

[٨٥].**دلائل الإعجاز**، الجرجاني، ص ٤١٨

إن تعدد [٨٦]،وقد ساعدت حركة الضمائر السبعة عشر في السورة،التي جاءت مستترة في خمسة ومتصلة في تسعة ومنفصلة في ثلاثة،في استمرار تصعيد دائرة الدلالة المركزة المكثفة،التي أدت إلى إجابة هي فصل الخطاب، بما للضمائر من قيمة مورفيمية وقدرة على الإيجاز والربط والحذف " ذلك لأنك لا تضمر الاسم إلا بعد تقدم ذكره، و معرفة المخاطب على من يعود و من يعني، أو تفسير يقوم مقام الذكر، و لذلك استغنى عن الوصف "[٨٧]. وقد توزعت الضمائر في السورة،بما يتناسب مع تشكيل فريقين لا ثالث لهما،يمكن توضيحها على النحو الآتي:

رقم الآية	الضمير/كلمةالضمير	عَوْد الضمير	نوع الضمير
١	قل	سيدنا محمد عليه السلام	مستتر وجوبا
٢	الكافرون "الواو"	الكافرون	متصل
٣	لا أعبد	سيدنا محمد عليه السلام	مستتر وجوبا
٤	تعبدون	الكافرون	متصل "و"
٥	أنتم	الكافرون	منفصل
٦	عابدون	الكافرون	متصل"و" *اسم الفاعل عامل
٧	أعبد	سيدنا محمد عليه السلام	مستتر وجوبا
٨	أنا	سيدنا محمد عليه السلام	منفصل
٩	عابد	سيدنا محمد عليه السلام	مستتر وجوبا
١٠	عبدتم	الكافرون	متصل " ت"
١١	أنتم	الكافرون	منفصل
١٢	عابدون	الكافرون	متصل "و"
١٣	أعبد	سيدنا محمد عليه السلام	مستتر وجوبا
١٤	لكم	الكافرون	متصل "ك"
١٥	دينكم	الكافرون	متصل "ك"
١٦	لي	سيدنا محمد عليه السلام	متصل "ي"
١٧	دينِ	سيدنا محمد عليه السلام	متصل "ي" ولكن حذف للتخفيف

[٨٦] اللسانيات، سمير ستيتية،عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠٠٥،ص ٢٤٦ .

[٨٧] **شرح المفصل**، ابن يعيش (موفق الدين يعيش بن علي)، عالم الكتب، بيروت **ح٣/ ٥٦**

ومما يلفت النظر أن الموقع الإعرابي لمعظم هذه الضمائر جاء مشكلا لعلاقة الإسناد مما يؤازر مفهوم القول الفصل في هذه السورة.

فكيف أسهمت هذه المستويات جميعا في رسم حركة التصعيد في السورة ؟

لا يخفى أن جملة الموضوع:" قل: لا أعبد ما تعبدون"، والمقصود بجملة الموضوع: تلك الجملة الممتدة حتى تصبح موضوعا كاملا، ويمكن أن يُعبرعنها رياضيا ب[٨٨]

- أ ← أ + &

ولنا أن نرى أن الجملة النواة لجملة مقول القول هي " أعبد الله"،ثم شاء الحق أن يأتي الردّ متناسبا مع الجماعة،التي نزلت السورة بخصوصهم،مركزا على جانب العقيدة،وهو "العبادة" بكل معانيها.فاقتضى ذلك تحويل بزيادة حرف النفي "لا" قبل الفعل و "ما تعبدون" بعده، وكذلك إضافة تركيب نداء يتجاوز تلك الجماعة إلى الكافرين جميعاً على اختلاف أهوائهم و معبود اتهم، وفي هذا تصعيد للغة الخطاب،في الآية، وإعلامها

ويقصد بالزيادة:" الزيادة على النظير، ويرمز لها رياضيا: ب

أ + ⟵ أ: ب ⊅ أ

ونصّبها هو أ تصبح(أ + ب)، حيث (ب) غير متضمنة في (أ)، [٨٩] فأصبحت الجملة " (قل يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) " [(١)] " لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ" {٢}

﴿ (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) (١)

qul	yaa	>ay	yu	hal	kaa	fi	ruun
ص ح ص	ص ح ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ص	ص ح ح	ص ح	ص ح ح ص
ق غ	ط م	ق ش غ	ق م	ق غ	ط م	ق م	ط غ

(﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) (٢)

laa	>a<	bu	du	maa	Ta<	bu	duun
ص ح ح	ص ح ص	ص ح	ص ح	ص ح ح	ص ح ص	ص ح	ص ح ح ص
ط م	ق غ	ق م	ق م	ط م	ق غ		ط غ

بدأت الآية بمقطع قصير مغلق" **ص ح ص**"[٩٠] يعبر عن انغلاق العلاقة بين الإيمان، والكفر بما استدعى أن يُرفع خطاب الرد إلى الله سبحانه وتعالى، وقد جاء بفعل الأمر "قل "، وهي "لا تغيّر الكلام عن حاله،

---

[٨٨] اللسانيات، سمير استيتية، ص ٢٤٦ .

[٨٩] انظر السابق، ص٢٤٦

، و انظر: . Aspects of the theory of Syntax Noam Chomsky..Them IT press.1980.p18

[٩٠] ص: رمز الصامت، ح: رمز الحركة سواء أكانت فتحة أم ضمة أم كسرة، وانظر في أنواع المقاطع ورموزها: **دروس في علم الأصوات العربية**. كانتينو، ترجمة صالح قرمادي، مركز الدراسات و البحوث، تونس، ١٩٦٦ م، ص ٩، و انظر: **المنهج الصوتي للبنية العربية**. عبد الصبور شاهين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٠ م، ص ٢٧ ،و

قبل أن تكون فيه "[٩١] فيفهم على سبيل الحكاية، والحكاية" لا تغير الكلام عمّا هو كان عليه "[٩٢]. وضابطها " إيراد اللفظ المسموع على هيئته من غير تغيير فيه أو إيراد صفته " [٩٣] ،وقد شاء الحق استعمال مادة" قول"، غير مسبوق بسؤال، بما يحمل الأمر من حذف لضمير الفاعل، وفي هذا اقتصاد لغوي، أدى إلى تكثيف الخطاب وبدئه متصاعدا، إذ بدلا من أن يعرض موقف الكافرين أولا، ثمّ يردّ عليهم، جاء الردُّ أولاً ، مما يجعل المتلقي يلحظ هول الخطاب، فيستقري السبب المباشر لهذا الإعلان السماوي على لسان رسوله الكريم، كما يُروى في سبب النزول، فيما حكاه الواحدي وابن إسحاق في السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يطوف في الكعبة، فاعترضه الأسود بن المطلب بن أسد، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف،والعاص بن وائل، وكانوا ذوي أسنان في قومهم، فقالوا: يا محمد هلّم فلنعبد ما تعبد سنة، وتعبد ما نعبد سنة، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد، كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد، كنت قد أخذت بحظك منه، فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره، فأنزل الله فيهم" قل يا أيها الكافرون" السورة كلها، فغدا رسول الله صلى عليه وسلم إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقرأها عليهم فيئسوا منه عند ذلك، وإنما عرضوا عليه ذلك لأنهم رأوا حرصه على أن يؤمنوا، فطمعوا أن يستزلّوه إلى الاعتراف بإلوهية أصنامهم. وعن ابن عباس: فيئسوا منه وآذوه وآذوا أصحابه.[٩٤] ولهذا النوع من الخطاب نظائر محدودة في القرآن الكريم [٩٥]

ثم يأتي في الآية مقطعان طويلان مفتوحان، جاء أحدهما مشكلاً لأداة النداء، بما في المقطع الطويل المفتوح " **ص ح ح**"[٩٦] ، من طاقة صوتية لتنبيه المنادى، والمقطع الطويل المفتوح الثاني، أسهم في تشكيل المقطع الثاني من كلمة " الكافرون" وكأنه بذلك ينبه إلى أن النداء، وإن كان سببه المباشر، الأشخاص الذين ذكرتهم الرواية، فإن النداء يشمل الكافرين جميعاً، فملّة الكفر واحدة، فضلا عن إن لفظة" الكافرون" تنبئ عن إيقاع تقابلي بين نقيضين، أولهما هولاء الكافرون الذين غطّوا الحقيقة الإيمانية القائمة على التوحيد، تحت أسمال شهواتهم وأهوائهم، بدا ذلك من خلال شركهم بالله سبحانه وتعالى على تعدد أشكاله، مقابل ذاك الصفاء الإيماني المنكشف على الحقيقة الربانية الواحدة، لا

المستشرقون و المناهج اللغوية .إسماعيل عمايرة، عمان – دار وائل للنشر،٢٠٠١، ص١٣٥

[٩١] **الكتاب**، سيبويه (عمر بن عثمان بن قنبر)،تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣،ج٣، ص ١٤٣

[٩٢] **الأصول في النحو**، ابن السراج(أبو بكر محمد بن سهل النحوي البغدادي، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة بيروت،ط (١٩٨٥) ج١، ص٢٦٣

[٩٣] **أوضح المسالك في شرح ألفية ابن مالك**، ابن هشام،(أبو محمد عبد الله بن مسلم، ٢٧٦ هـ)، تحقيق محي الدين عبد الحميد،دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٨، ١٩٨٦ م، ج٤، ص٢١٥

[٩٤] **الكشاف**، الزمخشري،. ج٤

[٩٥] تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، دار سيحون للنشرو التوزيع، تونس، ١٩٧٣ مجلد ١٢، ج٣٠، ص ٥٨١

[٩٦] ح ح: رمز الحركة الطويلة سواء أكانت الألف أم الواو أم الياء

يماري فيها ولا يقبل المساومة، ولا أنصاف الحلول، إذ يستحيل التوفيق بين الحق والباطل. ولا شك أن استعمال هذه الصيغة بما تثيره من إيحاءات مؤثرة متحدية في نفوس المتلقين، سواءً هؤلاء الذين ردّت عليهم السورة مباشرة، أم المتلقين للسورة في كل زمان ومكان يكشف عن إعجاز في تصعيد الخطاب فيها.

وقد شكلت هذه الآية العتبة الأولى التي يدلف بها المتلقي إلى هذه السورة، ذات الخطاب الحاسم الحازم، فقد سمّاها البخاري في كتابه التفسير بها، ومن هنا تأخذ هذه المادة العلامة السيميائية المهمة للولوج إليها،وهو ما عرف بالتغريض في لسانيات النص [٩٧]، ويعني: افتراض أن الجملة الأولى، في أي نص لها الحظ الأوفر في التأثير في الجمل التالية، لأن حركة النص، حركة تراكمية خطية،[٩٨]، مما حدا ببعض الدارسين إلى عدّ العنوان، هو مفتاح العلاقات في النص، وموجّهة الفهم لأنه يكون في البداية[(٩٩)]،وقد أدرك اللغويون القدامى أثر الآية الأولى وعنوان السورة عتبتين مهمتين للدخول إلى النص، فقد ألف السيوطي فيه كتابا،وسّمى علاقة التماسك بين فواتح السور وخواتمها، " علم المناسبة " وعدّه علما شريفا[(١٠٠)]، وينتهي فيهما إلى تأكيد مقولة أن "القرآن كالكلمة الواحدة،من أول كلمة فيه، حتى آخر كلمة فيه"[(١٠١)].

وقد اهتم البقاعي في تفسيره بالتغريض مبينا أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها،..، ومقصود كلِّ سورة هادٍ إلى تناسبها، ولا تخرج عن معاني كلماتها"[(١٠٢)]،

ويُعدَّ سيِّد قطب من المفسرين المحدثين الذين تنبهوا إلى أهمية هذا المبدأ في تفسيره "في ظلال القرآن فهو "سيد قطب هذه الساحة وقطب رحاها، لأنه قدم لنا في الظلال، السور والآيات كلبنات وحلقات متراصة في النص القرآني المتناسق المعجز"[(١٠٣)].

فالآية بطريقة الخطاب هذه تضع المخاطَبين والمتلقين في كل زمان ومكان أمام تنبيه صادر عن الله سبحانه، بنمط النداء:" أداة ا لنداء + المنادى المعرف بأل، وهو من أقوى أنواع النداء، وذلك لتكرار أدوات النداء فيه، إذ يمكن عدّ" يا أيها" أدوات نداء،خلافاً لما ذهب إليه بعض النحاة، في أن " أي": منادى مبني على الضم، في محل نصب، إذ لا يخفى أن النحاة اتجهوا إلى هذا الإعراب انسجاماً مع نظرية العامل،ولتكرار أدوات النداء نظائر في اللغات ا لسامية التي تنحدر من أرومتها العربية.[١٠٤]،و النداء

---

٩٧ لسانيات النص، محمد الخطابي،**المركز الثقافي في العربي،بيروت،١٩٩١،ص٥٩**

[٩٨] **تحليل الخطاب**، براون وبول، ترجمة منير التركي وزميله، منشورات جامعة الملك مود، الرياض، ١٩٨٣،ص٥٠

(٩٩) السابق، ص٥٩-٦١، وانظر: **عتبات النص الأدبي** لحمداني، حميد، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي بجدة، مجلد ١٢، شوال ١٤٢٣، ص٨.

(١٠٠) ، تناسق الدررفي تناسب السور ، السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن ، تحقيق عبد الله الدرويش، دار التراث، دمشق. ١٩٨٣

(١٠١)، **الإتقان** في علوم القرآن، لسيوطي، ٣٣/٣، وانظر:**نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، البقاعي، برهان الدين، ج٢١، ص ٣٠، وانظر:، **لسانيات النص**، الخطابي،ص ١٩٧.

(١٠٢) انظر، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، برهان الدين البقاعي، القاهرة،مكتبة ابن تيمية، ج ٢١، ص ٣٥، وانظر، **الإتقان في علوم القرآن**،: السيوطي تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، مصر، ج٣٢٧/٣-٣٢٨.

(١٠٣) **المنهج الحركي في ظلال القرآن**،الخالدي، صلاح عبد الفتاح دار الشهاب، الجزائر، ١٩٩٨، ص١٩٢.

[١٠٤] **تطبيقات في المناهج اللغوية**، إسماعيل عمايرة، دار وائل، عمان، ٢٠٠٠، ص ٥٨

بهذا النمط، ينمّ عن عمق معرفة بالكافرين و عن تحقير لهم، فضلاً عما يوحي به معنى مادة "كفر" من التغطية والستر[١٠٥] ومن نفاذ إلى أن الكفر طارئ على الفكر الإنساني، و أن الأصل هو الإيمان بالفطرة،ودليل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ الأعراف ١٧٢[١٠٦]،و هذا خلافاً لما ذهب إليه بعض الباحثين [١٠٧] من أن الله سبحانه و تعالى " لم يوجه للكافرين نداءً في القرآن الكريم كله.. و إنما يبلغون بلاغاً كقوله تعالى ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾) [الأنفال: ٣٨]

وتبدأ الآية "﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ" {٢}بمقطع طويل مفتوح فرعي، اكتسب زيادة واجبة في المد، بحكم وقوع الهمزة بعد حرف المدّ ، مما أعطى المقطع طاقة إعلامية تصعيديه عالية لإعلان النبأ، الذي يترقبه الكافرون. وهم يودون المداهنة بين الحق والباطل بالعبادة المتبادلة،إنه الانفصال الذي لا يُرجى معه اتصال، والإعلان جاء بأقوى أدوات الإعلان في اللغة، " لا"، إذ إن("لا " لا تدخل إلا على المضارع في معنى الاستقبال، كما أن " ما "، لا تدخل إلا على المضارع في معنى الحال). [١٠٨]،، ولا شك أن استعمال "ما" مع العائد المحذوف في "تعبدون" جاء مزودا بإيحاءات دلالية متعددة أدت إلى تقليب المعنى في ذهن المتلقي،فإن كانت "ما" اسما موصولا، وما بعدها صلة الموصول،ففيها إشارة إلى انفتاح المعنى على كل ما يعبد من دون الله.

وإن كانت مصدرية،على أنها تؤول وما بعدها بمفعول مطلق، فالرد مؤكد على الكافرين الذين حاولوا مساومة الرسول عليه السلام [١٠٩]، وقد شاء الحق أن تمتدّ جملة الموضوع برابط العطف (الواو)، إذ أقيمت به علاقة نحوية تكاملية بين عناصر التركيب. ولكنها علاقة تخالفيه، فصلت بين متناقضين، لا يمكن الجمع بينهما، مما أسهم في توثيق عُرى المقابلة، وطباق السلب،

وقد شاء الحق استعمال مادة " عبد "،والعبادة في اللغة:الطاعة مع الخضوع،وأصل العبودية الخضوع والتذلل،قال الأزهري:" ولا يقال:عبد يعبد عبادة إلا لمن يعبد الله،وأما عبْد خدم مولاه فلا يقال عبده "[١١٠]، وقال الراغب "العبودية إظهار التذلل و العبادة أبلغ منها،لأنها غاية التذلل،ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال،وهو الله تعالى ولهذا قال:" و لا تعبدوا إلا إياه "[١١١] وعليه فمعناها اللغوي:– الطاعة مع الخضوع، والإسلامي(الاصطلاحي): التنسك والطاعة لله،والتأله له،جاءا متوافقين لأن العبودية ينبغي ألا تكون لغير الله.

"﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾" {٣}

---

[١٠٥] ابن منظور،لسان العرب، مادة "كفر"

[١٠٦] **وانظر: الآيات ٢٥من سورة لقمان، و ٣٨ من سورة الزمر، و ٩ من سورة الزخرف**

[١٠٧] **في إعجاز القرآن، أحمد ا لبرزة ، دراسة تحليلة لسورة الأنفال، المحتوى و البناء، دار المأمون للتراث، دمشق ١٩٨٨ ص٥٢٣.**

[١٠٨]، الكشاف الزمخشري، ج٤، ص ٥٢٢.

[١٠٩]، التبيان في إعراب القرآن، العكبري (أبو البقاء عبد الله بن الحسين)، بيروت، دار الجيل،ج٢، ص ١٣٠٧.

[١١٠] **معجم تهذيب اللغة** ،.أبو منصور محمد الأزهري.، المجلد الثاني تحقيق رياض زكي قاسم، دار المعرفة، بيروت، ص ٢٠٣

[١١١] لسان العرب، ابن منظور مادة "عبد".

ويستمر التصعيد في الموقف في هذه الآية، إذ يتشكل المقطع الطويل المفتوح ثانية في الكلمات "لا"ً و"عابدون"، و"ما"، ولا شك أن هذا يتلاءم. مع التصعيد في استكمال إعلان الخبر، بنفي أن يعبدوا ما يعبد محمد صلى الله عليه وسلم، وقد انتهت الآية، بالمقطع القصير المغلق في التعبير عن دلالة ما ينعقد عليه القلب عند العبادة، ولا شك أن هذه الآية تحمل تصعيدا عالياً، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم، يتحداهم ليس فقط بما يملك هو من عدم عبادة ما يعبدون، ولكن الأمر يتعلق بهم هم، ولعل في هذا، ما يلفت نظرهم إلى مطلع السورة ثانية، فقد بدأت ب" قل"، فالإعلان إذن ليس صادراً عن الرسول عليه السلام بصفته البشرية، وإنما هو صادر عن ربه،الذي دعاهم لعبادته فكفروا به استجابة لأهوائهم ومطامعهم الدنيوية، وفي هذا التصعيد أيضاً إعجاز يظل معلناً عن نفسه للمتلقي إلى يوم القيامة، يتفكر فيه، ولا سيّما عندما يعلم أن هؤلاء الكفار الذين نزلت السورة بخصوصهم ماتوا وهم كفار، رغم هذا التحدي الحاسم من الله سبحانه وتعالى بأنهم سيظلون على كفرهم، ونلحظ أنه لم يكن العطف بالجملة الفعلية،على نسق الأولى، ولكنه جاء بالجملة الاسمية،للدلالة على الثبات، ويكون الخبر اسم فاعل دالٌّ على زمن الحال، فلما نفى عن نفسه أن يعبد في المستقبل ما يعبدون، صرّح بما يقتضيه دلالة الفحوى على النفي، ان يعبدوا الله في الحال ".[١١٢]، و قد شاء الحقّ أن يستعمل " ما أعبد " و ليس "مَنْ أعبد"، مع أنه القياس، و ربما رجح هذا الاستعمال أنّ "ما" هنا مصدرية، وذلك على تقدير " و لا تعبدون عبادتي"[١١٣] وذهب الزمخشري إلى أنه (إنما قال " ما " لأن المراد الصفة، كأنه قال، لا أعبد الباطل،ولاتعبدون الحق".[١١٤] قال غيره:"ما " في الكل بمعنى الذي، والعائد محذوف، ولا شكّ أن هذا النوع من الخطاب المتحدي، دليل على نبوة سيّدنا محمد صلى الله عليه و سلم، لأنه يتحدى في أمر غيبي واقع ضمن دائرة تخيير من يتحداهم. "وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ" {٤} ويستمر التصعيد في الخطاب منتقلاً إلى دائرة أخرى، تنبئ عن أن الخطاب الرافض للمساومة، يصدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه، وشدة التأثر بالخطاب الرباني، يكسبه صلى الله عليه وسلم طاقة إبلاغية عالية، يبدو ذلك من تشكل المقطع الطويل الفرعي، الناتج عن المدّ المنفصل ثانية، وكذلك في استعمال ضمير المتكلم، الذي يشكل مرجعية خارجية، تجعل المتلقي عبر الزمان والمكان، يستطلع الذات المبلِّغة، المتحدية،" ثم تنتهي الآية بمقطعين قصيرين مغلقين (عبدتم) بما فيها من إدغام، والإدغام في حقيقة الصوتية،" دمج صوت في صوت مقارب له في موضع النطق، مع اختلاف بينهما في بعض السمات والملامح الصوتية، حتى يظهر الصوت المدغم، وكأنه صوت مماثل للصوت الذي أُدغم فيه، فيظهر الصوتان وكأنهما صوت واحد مشدد. [١١٥]

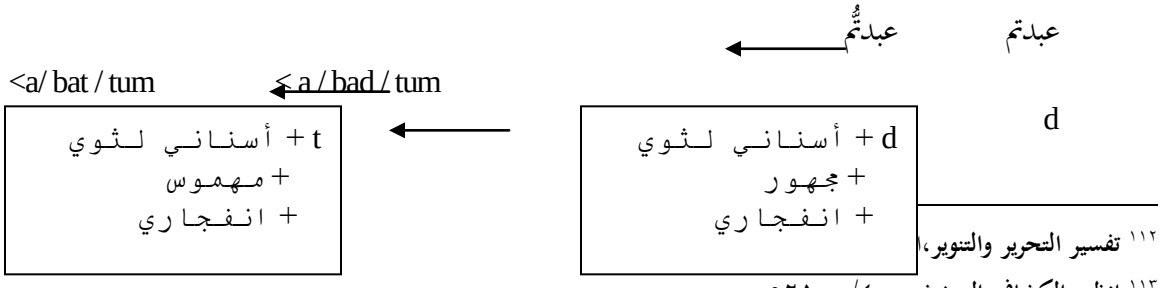

[١١٢] **تفسير التحرير والتنوير،ا**

[١١٣] **انظر: الكشاف الزمخشري، ٤/ ص٥٢١**

[١١٤] **السابق، ج ٤/ ص ٥٢١**

[١١٥]، الإقناع في القراءات السبع،ابن الأنصاري (أبو جعفر بن علي)، تحقيق أحمد المزيدي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٩، ص ١٠٣.

" الدال تصبح تاءً في الموقع الذي تكون فيه متبوعة بالتاء" ولا يخفى أن هذا النوع من الإدغام أبرز الضمير العائد على الكافرين.

"﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾"(٥

ويستمر التصعيد في الخطاب بأن تأتي الدلالة المتحدية على لسان النبي عليه السلام، وبالثوب اللفظي الرباني نفسه، وفي هذا غير دلالة، أبرزها تلك الطاقة الإيمانية الهائلة، التي تولدت في نفسه عليه السلام، فبات يتكلم بلسان خالقه معلناً الإعلان ذاته، فليس من مجال لأن يُظن أن الأمر فقط أمر توقيفي من رب محمد، الذي يكفرونه بأدثرة أهوائهم، ويتساءلون تارة أين هو؟ بل الأمر صادر أيضاً عن محمد القائم بين ظهرانيهم، معبراً عن قناعة ذاتية اكتسب قوتها وعزيمتها من ربه، فاستوت المقابلة بين فريق الإيمان وفريق الكفر مقابلة لا تحتمل التسوية، ولا المقايضة والتنازل، وكذلك يشير إلى ثقة محمد عليه السلام بربه، فهو يتحداهم بأمر غيبي، دون أن يحتمل أن يشهدوا بأنهم مسلمون، ولو من باب اتفاق المراءاة وإبطال الحجة.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٦)

وتأتي هذه الآية خاتمة لهذه السورة، مصعدة الإعلان الرباني عن طبيعة العلاقة بين معسكري الإيمان والكفر،ولعل هذه القراءة، وهي قراءة الجمهور،تثير ذهن المتلقي إلى التفكير في نهاية مفتوحة، فهي تحتمل أن يكون " ديني"، على نسق "دينكم". وتحتمل أيضاً أن تكون على تقدير مضاف إليه آخر كأن تكون" دين الله "، وعليه فهو الدين الذي بعث به الرسل جميعاً قبل محمد عليه السلام، وفي هذا ربط للمنهج الإسلامي بمصدره الإلهي،و على هذا فالقراءات القرآنية يمكن أن يُنفذ منها إلى تقليب الدلالة في ذهن المتلقي، فضلاً عن تيسير القراءة، فضلا عمّا ذهب إليه الفرّاء من أن " الياء" في " دين " حُذفت، لأن الآيات بالنون " [١١٦]

و قد قرأ يعقوب هذه الآية بإثبات الياء في الوصل و الوقف[١١٧] وقد تناسب تركيب الجملة الاسمية بما فيها من تحويل بالترتيب مع إبرازها في صورة حقيقة متلألئة،إذ قُصر المسند على المسند إليه، بمعنى أن دينكم مقصور على أنه لكم، لا يتجاوزكم، و ديني مقصور على ، لا يتجاوزني لكم، وفي هذا قمة التحدي الذي تحقق بعدم إسلامهم. [١١٨]، ولعل تقدم " لكم دينكم " على " لي دين " جاء بدءاً بمَن طلب القسمة ،فضلا عمّا يشفُّ عنه من سخرية بهم وبحالهم " حال من اقتسم هو وغيره سُمّاً وشفاء، فرضي مُقاسمُه بالسمّ، فقال له: لا تشاركني في قِسمي ولا أشاركك في قِسمك، لك قسمك ولي قِسمي ". [١١٩] ونلحظ أن

---

[١١٦] انظر: **معاني القرآن**، الفرّاء، عالم الكتب، بيروت، ج٢٩٧/٣

[١١٧] السابق، ج٢٩٧/٣

[١١٨] **تفسير التحرير والتنوير** ابن عاشور ص٥٨٤

[١١٩])، **التفسير القيِّم للإمام ابن القيّم**، ابن القيِّم الجوزيه(محمد بن أبي بكر، جمعه محمد أويس الندوي، حققه محمد حامد الفقي، ص ٦٠٠

الجملة تأتي بلا عاطف، لأنها نتيجة للآيات السابقة، وهي تمثل قمة البيان والتصعيد، وهي ظاهرة في العربية تأتي في الأسماء والجمل، يقول في ذلك الجرجاني:" واعلم أنه كما كان في الأسماء ما يصله معناه بالاسم قبله، فيستغني بصلة معناه له عن واصل يصله ورابط يربطه... كذلك يكون في الجمل ما تتصل من ذات نفسها بالتي قبلها وتستغني بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها، " [١٢٠] وعليه فقد تصاعدت دلالة الدين في السورة حتى شملت المعنى اللغوي: ":الجزاء والمكافأة والطاعة،و العادة [١٢١]، والإسلامي(يوم الحساب) معا،إذ يوم الحساب هو ذروة ما ينتظره الإنسان في الآخرة.

و قد أرسل هذا الكلام "﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾" إرسال المثل، و جرت عادة الناس أن يمثلوا بهذه الآية عند المتاركة، و قد عدّ ذلك الفخر الرازي غير جائز، لأن الله تعالى ما أنزل القرآن ليُتمثل به، بل ليُتدبر فيه. ثم يعمل بموجبه "[١٢٢]،وأرى ما يراه ابن عاشور من أن اتخاذه مثلاً لا يُنافي العمل بموجبه، " و ما التمثل به إلا من تمام بلاغته، و استعداد للعمل به "[١٢٣]،بل إن في ذهابها مثلاً قمة في التصعيد،إلى حدِّ البراءة الكاملة، والحسم الصريح، وقطع العلاقات بمفهوم سياسي معاصر.

و لا يخفى أن البنية الإيقاعية في السورة، جاءت معتمدةً على توزيع المقاطع في البنية التركيبية ، و هو ما عرف بالإيقاع الكمي [١٢٤]، وذلك من جوانب أبرزها:

– جاءت المقاطع القصيرة المفتوحة"**: ص ح**" وعددها(٢٠) مقطعاً،و المقطع القصير المفتوح يمثّل اللبنة الأولى في النظام المقطعي، فهو الدائرة الأضيق الذي يؤدي الفونيم وظيفة من خلالها، تكاد تساوي المقاطع القصيرة بنوعيها المغلقة**ذ** " وعددها(١٨)،والمقاطع القصيرة شبه المغلقة بياء ساكنة أو واو ساكنة[١٢٥]: ص ح ص "، وعددها واحد، و هذان النوعان يتناوبان مع المقاطع الطويلة المفتوحة " **ص ح ح**" وعددها (١٦) بشكل متعادل.

– تكررت الأصوات الانفجارية في السورة أصوات (٣٣) مرّة ، في حين تكررت الأصوات الاحتكاكية(١٠) مرات، وقد تنوعت الأصوات الانفجارية، فكان أكثرها تكراراً الأصوات الانفجارية المجهورة فصوت الدال تكرر (١٠) مرات والياء تكرر (٨) مرات، والهمزة (٧) مرات، في حين كانت الأصوات الاحتكاكية، محصورة في صوت واحد هو العين، الذي تكرر(٨) مرات، وورد صوتان آخران مرة واحدة لكل منهما، هما صوتا الهاء والطاء،أما الأصوات المجهورة، فكان تكرارها (٧٠) مرة،شكل الميم والنون، الصوتان الأنفيان، النسبة الأعلى فيها، إذ تكرر الميم عشر مرات، والنون تسع مرات، في حين تكررت المهموسة (١٠)

---

[١٢٠] **دلائل الإعجاز**، الجرجاني،ص٢٤٤.

[١٢١] **لسان العرب**، ابن منظور، مادة" دين"

[١٢٢] **التفسير الكبير**،الرازي " فخر الدين " دار إحياء الثراث العربي، بيروت، ج٣٠، ص٥٠

[١٢٣] **تفسير التحرير والتنوير** ابن عاشور، ص٥٨٤

[١٢٤] **الإيقاع وعمود الشعر العربي**، البحراوي، سيد القاهرة ن ١٩٨٢، ص٤٥

[١٢٥]) **المقصود بالياء أو الواو هنا ، الياء الساكنة، أو الواو الساكنة، إذا سبقت أيٌّ منهما بحركة، و هما تعدّان في باب الصوامت و إن كانتا أقرب الصوامت إلى الحركات، و لذا سُمي كل منهما شبه صامت**، انظر: **الأصوات اللغوية**، ستيتية. سمير، دار وائل للنشر، عمان، ٢٠٠٣، ص٧٥

مرات، وهذا يتناسب مع الوضوح السمعي الذي تتطلبه السورة.، فالأصوات المجهورة أشدّ في الوضوح السمعي Sonority من الأصوات المهموسة، و يقصد بالوضوح السمعي، طاقة الصوت النطقية التي تجعله واضحا للسامع، غير ملتبس بغيره من الأصوات [١٢٦]،. و قد أسهم التعادل في توزيع المقاطع في السورة،فضلا عن صفات فونيماتها، في أن يلامس التعبير المعنى ملامسة الروح للمادة، حتى لا يكون المعنى معجزاً، إلا في الصيغة اللفظية التي أفرغه الله فيها،

– وُظفت البنية الصوتية في تشكيل البنية البلاغية للسورة، ولا سيّما الطباق الذي شاع في كل آية من آيات السورة، و المقابلة التي جعلت المقارنة بين عبادة الله، و الشرك به واضحة، إذ إن الإيقاع التقابلي يجعل المرء أقدر على معرفة حدود الأشياء، عندما تعرض بإزاء أضدادها، هذا الإيقاع التقابلي في السورة، جعل الطباق و المقابلة علامتين سيميائيتين.، و العلاقة بين اللغة و الإشارات، التي هي موضوع السيميائية، علاقة تَضَمْن و احتواء، فاللغة بأنظمتها الصوتية، و الصرفية، و التركيبية، تقع ضمن دائرة النظم[١٢٧]، و عليه فقد أدت هذه العلامات إلى تصعيد في الدلالة، و ذلك بما تولد عن اجتماعها من حتمية الربط الحاصل في ذهن المتلقي، فضلا عن دورهما الفاعل في تشكيل البنية الإيقاعية المميزة في السورة، وهذا ما يتجاوز العلاقة الجدلية بين الصورة الصوتية و مدلولها، التي اختلف فيها الباحثون قديماً و حديثاً،و تحمس لها ابن جني [١٢٨] إلى الاستضاءة برأي عبد القاهر الجرجاني الذي حسم فيه هذه المسألة ذاهباً إلى أنه " ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها، وتلاقت معانيها، على الوجه الذي اقتضاه العقل " [١٢٩]، و وافق رأي دي سوسير رأي الجرجاني، إذ يرى " أن العلاقة بين الدال و المدلول اعتباطية Arbitrary، جزافية Signifier sign، لا يمكن أن تدل عليه إلا بالاتفاق و الاصطلاح[١٣٠]

ولعل في تتبع حركة التصعيد إضاءة على فضاء هذه السورة المعجز، فالمسألة ليست تكراراً، و ليست تأسيساً، و هي ليست مقتصرة على دلالة الزمن، و لكنها تنضوي تحت مظلة أوسع من ذلك، إنها دائرة تصعيد الخطاب، الذي بدأ بدائرة صاعدة، استمدت تصعيدها من القوة الإلهية، بخطاب شامل جامع لأنواع الكفر كلِّها، على لسان رسوله، ثم تنتقل إلى دائرة أكثر تصعيداً من رسول الله الذي يرونه بين ظهرانيهم، و الذي عزّ عليهم أن لا يكون رجلاً من القريتين عظيم –من وجهة نظرهم– يتبنى الخطاب الرباني إياه، لينتهي الخطاب بلا فتة مُضاءة بنور ربها، تمثل فصل الخطاب،يرفعها المسلمون شعارا لهم، كُتب عليها " لكم دينكم و لي دين "، تظل شاهدة من شواهد إعجاز القرآن الكريم،مضيئة بالبراءة من الشرك، على مدى الزمان و المكان و الإنسان تشهد أن ملة الكفر واحدة.وأن لا مساومة مع الكفار في مجال العقيدة، وفي الوقت نفسه، لا مبرر لاضطهاد الآخرين بسبب عقائدهم.

---

[١٢٦] انظر: السابق، ص ١٧٥

[١٢٧]. **منازل الرؤيا**، ستيتية. سمير دار وائل، ٢٠٠٣ م، ص ٧٣

[١٢٨]. **الخصائص**. ابن جني، تحقيق محمد النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٦ م، ج١/٧٥

[١٢٩]. **دلائل الإعجاز**، الجرجاني. عبد القاهر تعليق و شرح عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، ١٩٦٩ م، ص ٧٥

[١٣٠] De Saussure.NY MCGraw-hill.1959,p16،**Course in General Linguistics**.

يتلوها المسلمون ولا سيّما في ركعتي الفجر[١٣١] والطواف[١٣٢]، اقتداء برسولهم الكريم، سورة عظيمة "، إذ رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه قال فيها " من قرأ سورة الكافرين، فكأنما قرأ ربع القرآن، وتباعدت منه مَرَدة الشياطين وبرىء، من الفزع الأكبر"[١٣٣]

خاتمة، و بعد،

- فإن ظاهرة تصعيد الدلالة في القرآن الكريم يمكن أن يتناولها البحث على المستوى الصوتي، و الصرفي، و التركيبي، و قد استفادت الدراسة من مناهج اللسانيات الحديثة، للكشف عن التصعيد المطرد في السورة.
- انتهت الدراسة في المستوى الصوتي، إلى أن الصفة الغالبة أن المقاطع الصوتية ليست أشكالاً مفرغة، و إنما تتوزع موافقة لتصعيد الدلالة، مما أسهم في تشكيل إيقاع تصعيدي قائم على شيوع الفونيمات المجهورة الانفجارية في بيان أن لا مجال لأي حلّ وسط مع الكفار في مجال العقيدة، وفي الوقت نفسه لا مبرر لاضطهاد الآخرين بسبب عقائدهم، فحساب الجميع على الله، وليس على العباد.
- ترى الدراسة أن المفردة في السورة تُنْتَقَى وفق المضمون القابع في نسيجها، و من هنا جاءت بعض المفردات خاصة بهذه السورة، و هي في معناها المعجمي و في بنيتها الصرفية تؤدي، فضلاً عن معانيها العقلية، كل ما تحمل في أحشائها من صور مدخرة، و مشاعر كامنة لفت نفسها لفاً حول معانيها، مولدة دوائر تصعيد متفقة مع ما تثيره من دلالات.

المصادر و المراجع

القرآن الكريم

أ.ب بتشيكوف، برميلوف فلاديمير. ترجمة عبد القادر القط وفؤاد كامل، الهيئة المصرية للتأليف والترجمة د.ت.

الإتقان في علوم القرآن،: السيوطي تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، مصر.

استخدام الآلات الحاسبة الالكترونية في دراسة ألفاظ القرآن الكريم، علي حلمي موسى، عالم الفكر، المجلد ١٢، ١٩٨٢م.

الأشباه والنظائر، مقاتل بن سلمان البلخي (ت ١٥٠ هـ) تحقيق عبد الله شحاتة، القاهرة ١٩٧٢م.

الأصوات اللغوية. سمير استيتية، عمان –دار وائل، ٢٠٠٣م.

الأصول في النحو، ابن السراج(أبو بكر محمد بن سهل النحوي البغدادي، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة بيروت،ط (١٩٨٥).

الإقناع في القراءات السبع، ابن الأنصاري (أبو جعفر بن علي)، تحقيق أحمد المزيدي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م.

---

[١٣١] **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، وقم ٧٣٦ في التفسير

[١٣٢]، **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، وقم ١٢١٨ في الحج

سنن الترمذي المسمى بـ «الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ومعرفة الصحيح والمعلول

[١٣٣] **وما عليه العمل**

الترمذي(محمد بن عيسى(٢٧٩هـ)، **حديث أنس رضي الله عنه،وانظر: الكشاف،الزمخشري،ج ٤/٨٠٩**..

إعراب القرآن و بيانه، محيي الدين الدرويش، اليمامة، دمشق، ٢٠٠١م.
أوضح المسالك في شرح ألفية ابن مالك، ابن هشام،(أبو محمد عبد الله بن مسلم، ٢٧٦ ه)، ،تحقيق محي الدين عبد الحميد،دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٨، ١٩٨٦م.
الإيقاع وعمود الشعر العربي، البحراوي، سيد القاهرة ن ١٩٨٢م.
البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ،ج٨، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣م.
بحوث في الاستشراق واللغة، إسماعيل عمايرة،، عمان — دار وائل للنشر،٢٠٠١م.
البرهان في علوم القرآن، الأمام بدر الدين الزركشي (ت٧٩٤ه)، تعليق مصطفى عبد القادر عطا،دار الكتب العلمية،بيروت،٢٠٠١م.
بيان النظم في القرآن الكريم. محمد فاروق الزين. دار الفكر. دمشق،٢٠٠٠م.
التبيان في البيان،شرف الدين الطيبي، تحقيق توفيق الجمل وعبد اللطيف لطف الله، دار ذات السلاسل، الكويت،١٩٨٦م.
التبيان في إعراب القرآن، العكبري (أبو البقاء عبد الله بن الحسين)، بيروت، دار الجيل.
تصعيد الخطاب في القرآن الكريم،سورة العاديات أنموذجا، حليمة عمايرة، ،.منشورات جامعة اليرموك في الكتاب الخاص بمؤتمر النقد واللغة الثاني عشر، ٢٠١٠م.
تاج العروس في جواهر القاموس ، محمد مرتضى الزبيدي،تحقيق عبد العزيز مطر، مراجعة عبد الستار أحمد فراج، الكويت، د.ت.
التصوير الفني في القرآن، سيد قطب. دار المعارف د.ت .
تطبيقات في المناهج اللغوية، إسماعيل عمايرة، دار وائل، عمان، ٢٠٠٠م.
تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، دار سيحون للنشرو التوزيع، تونس، ١٩٧٣م.
التفسير القيِّم للإمام ابن القيّم، ابن الفيِّم الجوزيه(محمد بن أبي بكر، جمعه محمد أويس الندوي، حققه محمد حامد الفقي.
التفسير الكبير،الرازي " فخر الدين " دار إحياء الثراث العربي، بيروت.
تناسق الدرر في تناسب السور ، السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن، تحقيق عبد الله الدرويش، دار التراث، دمشق. ١٩٨٣م.
الجامع لأحكام القرآن، القرطبي،(محمد بن أحمد بن أبي بكر٦٧١ ه)، القاهرة، دارالكتب،١٣٥٩ه.
جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز. أحمد ياسوف،، دار المكتبي، دمشق، ١٩٩٤م.
الخصائص،ابن جني، تحقيق محمد النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م.
دراسة الصوت اللغوي أحمد مختار، عمر. عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٦م.
دروس في الألسنية، دي سوسير، ترجمة صالح القرمادي، الدار العربية للكتاب–ليبيا، ١٩٨٥ م.
دروس في علم الأصوات العربية،كانتينو، ترجمة صالح قرمادي، مركز الدراسات و البحوث، تونس،.
دلائل الإعجاز، الجرجاني، تعليق و شرح عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، ١٩٦٩ م.
الزينة، أبو حاتم (أحمد بن حمدان الرازي) ت (٣٢٢ ه)، تحقيق حسين بن فيض الهمذاني،ح١/ص ١٤،القاهرة ١٩٥٧م.

شرح المفصل، ابن يعيش (موفق الدين يعيش بن علي)، عالم الكتب، بيروت.
عتبات النص الأدبي لحمداني، حميد،، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي بجدة، مجلد ١٢، شوال ١٤٢٣م.
عشرة أدباء يتحدثون، فؤاد فوارة،، دار الهلال ١٩٧٠م.
علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، صبحي الفقي.، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠٠م.
علم لغة النص، سعيد بحيري، ،مكتبة الأنجلو المصرية،١٩٩٣م.
عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ. معجم لغوي لألفاظ القرآن الكريم، السمين الحلبي." أحمد بن يوسف "،ط١، ج٢، (تحقيق محمد التونخي)،دار عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٣م.
في إعجاز القرآن، أحمد ا لبرزة ، دراسة تحليلة لسورة الأنفال، المحتوى و البناء، دار المأمون للتراث، دمشق ١٩٨٨م.
في علم الأصوات العربية. كانتينو، ، ترجمة صالح قرمادي، مركز الدراسات و البحوث، تونس، ١٩٦٦م.
في ظلال القرآن، سيد قطب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧١م.
،قضايا النقد الأدبي والبلاغة، محمد زكي العشماوي، دار الكتاب العربي،القاهرة ١٩٦٧م.
الكتاب، سيبويه (عمر بن عثمان بن قنبر)،،تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م.
كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق محمد علي البجاوي، وأبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية،١٩٥٢م.
.الكشاف،الزمخشري دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٦م.
لسان العرب، ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمد ابن مكرم المصري)، ط بولاق١٣٠٧هـ.
اللسانيات، المجال والوظيفة والمنهج،سمير ستيتية، عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠٠٥م.
لسانيات النص، محمد الخطابي، المركز الثقافي في العربي،بيروت،١٩٩١م.
مختصر في شواذ القرآن، ابن خالويه،عني بنشره ج. برجشتراسر دار الهجرة، القاهرة، د.ت
المستشرقون و المناهج اللغوية. إسماعيل عمايرة، عمان،دار وائل للنشر،٢٠٠١م.
معجم تهذيب اللغة ،.أبو منصور محمد الأزهري.، المجلد الثاني تحقيق رياض زكي قاسم، دار المعرفة، بيروت.
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبد الباقي...ط٢،دار الحديث ،القاهرة،١٩٨٨م.
منازل الرؤيا، ستيتية. سمير دار وائل، ٢٠٠٣ م.
المنهج الحركي في ظلال القرآن،الخالدي، صلاح عبد الفتاح دار الشهاب، الجزائر، ١٩٩٨م.
المنهج الصوتي للبنية العربية، عبد الصبور شاهين، ، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٠ م.
النص والخطاب والأجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة تمام حسّان، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م.
Noam Chomsky, Aspects of the Theory of Syntax..Them IT Press.1980.
De Saussure. Course in General Linguistics, NY MCGraw-hill.1959.